مادة الاستشراق – المرحلة الرابعة – قسم العقيدة

الوسائل الرئيسية للغزو الفكري

اشتملت الفقرة السابقة على شرح المنهج الرئيسي للغزو الفكري ، بشعبه الأربع.

ولكن يتفرع عن هذا المنهج الرئيسي سُبُل فرعية كثيرة يستخدم الغزاة فيها عدة وسائل لتحقيق أهدافهم.
وبنظرة سريعة تنكشف للباحث الوسائل الرئيسية التالية:

الوسيلة الأولى:

تشويه عقائد المسلمين ومفاهيمهم الفكرية ، وتشويه النظم الإسلامية ، وسائر أحكام الإسلام وشرائعه وأخلاقه وكل ما يتعلق بالتراث الإسلامي وتاريخ المسلمين.

وقد اهتمّ أعداء الإسلام باستخدام هذه الوسيلة اهتماماً عظيماً ، لصدّ الناس عن الإسلام ، وتنفير أبناء المسلمين منه ، وتقبيح صورة الإسلام في أفكارهم ونفوسهم.

والسبب في ذلك أن أعداء الإسلام قد عرفوا حقاً قوة الإسلام ، وقدرته على الانتشار والاتساع وما فيه من حق غلاب ، ذي سطوة على الأفكار والنفوس ، وما فيه من ملاءمة للفطرة الإنسانية ، وملاءمة للمصالح البشرية التي تكشفها التجربة الطويلة.

ويستخدم الغزاة للوصول إلى هذا التشويه ما يلي:

أ -التشكيك بالحق ، عن طريق زخرف القول.

ب -إلقاء الشبهات ، وتوجيه المطاعن افتراءً وزوراً.

جـ -المغالطات الجدلية التي تعتمد على الأكاذيب والتزييفات وحيل التحريف والإيهام وكتم الحق وتلبيس الحق بالباطل وحيل إظهار بعض الأمر وإخفاء بعضه.

إلى غير ذلك من أمور.

الوسيلة الثانية:

محاربة اللغة العربية الفصحى واللغات الإسلامية الأخرى ومحاولة طمس علومها وآدابها بمختلف الوسائل بغية صرف المسلمين عن مصادر التشريع الإسلامي وسائر التراث الإسلامي وبغية تجزئة المسلمين.

وقد اتخذت هذه المحاربة صوراً ماكرة متعددة ، استخدم فيها أسلوب النصيحة حيناً والتسلل بما يُسمّى" علم اللغات العامة "حيناً آخر ، وهذا التسلل دخل إلى الدراسات الجامعية.

وظهرت هذه المحاربة في الدعوة إلى إحلال اللهجات العامية محل العربية الفصحى ، أو التعديل في قواعدها وقوانينها ، أو تبديل كتابتها إلى الحرف اللاتيني ، أو التعديل في طريقة كتابتها.

وظهرت أيضاً بتشييع الآداب الشعبية ، والفنون الشعبية) الفولكلور (والتبعية لأساليب الآداب الغربية كنظام ما يسمى بالشعر الحر.

الوسيلة الثالثة:

إحياء القوميات القديمة ، وتراثها وتاريخها الجاهلي ، وآثارها وآدابها الجاهلية ، لمزاحمة الإسلام من جهة ولتفتيت الشعوب الإسلامية من جهة ثانية ، وذلك بربطها بجاهلياتها القديمة ونعراتها القومية وعصبياتها العرقية.

الوسيلة الرابعة:

استخدم الأجراء أو المندسين واستغلال المغفلين والجهلة وأصحاب الأهواء والمنحرفين في سلوكهم من الفساق وعصاة المسلمين لتحريف عقائد المسلمين ومفاهيمهم الفكرية مقدمة للإقناع بفساد العقائد والمفاهيم والشرائع الإسلامية ، وضرورة نبذها والتخلي عنها . واستخدام هؤلاء أيضاً لتشويه التطبيقات الإسلامية وتحويلها إلى بدع وخرافات ليكون ذلك ذريعة لمحاربة الإسلام تحت ستار أن هذه التطبيقات المشوهة هي تطبيقات إسلامية.

الوسيلة الخامسة:

الاستدراج البطيء إلى ممارسة السلوك الذي يراد الغزو به ، وترك السلوك الذي يراد التحويل عنه ، ويكون ذلك:

أ -بالرفقة والمصاحبة.
ب -بإغراء الأهواء والشهوات والمطامع.
جـ -بشراء الضمائر.
د -بالغمس بالبيئات الفاسدة ، استدراجاً إليها وهي في بلاد الغزاة أو إنشاءً لها بالتدرج داخل بلاد المسلمين.
هـ - بعرض نماذج هذا السلوك مزيناً محبباً للنفوس ، والتأثير عليها بطرق غير مباشرة ، كالقصص والتمثيليات والمسرحيات.

الوسيلة السادسة:

استخدام النفاق والمنافقين والأقنعة المزوّرة ، ويكون ذلك بما يلي:

أ -بإدخال الكفرة في صفوف المسلمين متظاهرين بالإسلام ، لإفساد حال المسلمين فكراً وسلوكاً ، والإضرار بهم وهم داخل صفوفهم.

ب -بإخراج بعض أبناء المسلمين من دينهم إخراجاً فكرياً وقلبيّاً ، وتوصيتهم بأن يظلّوا متظاهرين بالإسلام نفاقاً ، ليقوموا بما يريده الغزاة من غزوٍ فكري وسلوكي داخل أمتهم التي هم من سلالتها ، وينتمون إليها في الظاهر.

الوسيلة السابعة:

استغلال ردود الأفعال بعد أحداث طارئة أو أحداث مفتعلة أو بعد هجوم فكري منظم.

كاستغلال حالة انفعال المسلمين تجاه هجوم طارئ أو تجاه هجوم مفتعل عليهم ، لإشعال نيران فتنة بينهم وبين غيرهم ، واستدراجهم إلى مذابح تقضي على قسم كبير منه ، أو إلى ثورات واضطرابات تبدّد طاقاتهم وتجزّئ صفوفهم.

ومن أمثلة استغلال رد الفعل غير الواعي ما فعله المستشرقون من الهجوم الفكري على الإسلام بأنه لم ينتشر في العالم عن طريق الإقناع ، وإنما انتشر عن طريق الإكراه بالسيف ، فكان رد الفعل لدى بعض المسلمين مقالتهم بأن الإسلام ليس فيه إلا قتال الدفاع فقط ، وهذا هو ما يريده أصحاب الهجوم أنفسهم.

الوسيلة الثامنة:

استخدام الخطوات المتدرجة للنقل من موقع فكري إلى موقع فكري آخر.

وذلك لأنَّ النقل المفاجئ السريع أمرٌ تأباه النفوس ، وتقابله تلقائياً بالعناد والرفض.

ومن الخطوات المتدرجة التحريف في مفاهيم الإسلام شيئاً فشيئاً ، على فترات زمنية متباعدة.

وهذه الوسيلة هي من وسائل الشيطان التي حذرنا الله منها ، في أربعة مواضع من القرآن الكريم.

الموضع الأول :في سورة) الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول (المكية ، وفي سياق التحذير من تحريم ما أحل الله من بهيمة ألأنعام ، فقال الله تعالى فيها خطاباً للناس عامة:

}كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{

وفي هذا دلالة على أن للشيطان خطوات يبدأ فيها بتزيين تحريم بعض ما أحلَّ الله ، ثم ينتقل إلى تزيين تحريم أمر آخر ، ثم إلى تزيين إباحة ما حرم الله ، وتستمرّ الخطوات تتتابع حتى يكون الشيطان هو معبود الناس ، ويتخذه الناس شريكاً لله.

الموضع الثاني : في سورة) البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول (أول سورة مدنية ، وقد أتبع الله النهي عن اتباع خطوات الشيطان ببيان أن الشيطان يأمر بالسوء والفحشاء والافتراء على الله ، فيبدأ بالمعاصي الصغرى على اختلاف دركاتها ، وعنوانها) السوء (، ثم ينتقل إلى المعاصي الكبرى على اختلاف دركاتها ، وعنوانها) الفحشاء (، ثم ينتقل إلى أكبر الكبائر ومشاركة الله في إلهيته ، وعنوان ذلك) الافتراء على الله.(

فقال الله عز وجل فيها خطاباً للناس أجمعين:

}ياأَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا

يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{

الموضع الثالث :في سورة) البقرة (أيضاً ، وفي سياق التعريف بقسم من الناس يعجب السامع قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام.

ولعل هذا السياق يشعر بالتحذير من ذوي الأقوال المزخرفة المعجبة ، التي تستدرج إلى مواقع الضلال الفكري أو الانحراف السلوكي.

فقال الله تعالى فيها خطاباً للذين آمنوا:

}يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{

وفي أمر المؤمنين بأن يدخلوا في السلم كافة إلزام لهم بأن لا يكون بينهم تقاتل ولا صراع مهما دعت الدواعي.

وبعد هذا حذرهم من اتباع خطوات الشيطان ، وذلك لأن من خطواته استدراج المؤمنين إلى الخلاف فالعداوة والبغضاء فالقتال.

ويتعاون شياطين الإنس الذين تعجب أقوالهم في الحياة الدنيا مع شياطين الجن الذين يوسوسون لإلقاء الخلاف والعداوة والبغضاء بين صفوف المؤمنين ، ليقتتلوا ، فتُدمَّر قواهم ، وتجزّأ وحدتهم ، ويظفر بهم عدوّهم.

الموضع الرابع : في سورة) النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول (المدنية ، وفي سياق عرض قصة الإفك على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وأحكام الله في القذف ، والتحذير من إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا ، ونشر شائعات السوء ، لأن ذلك من الخطوات التي تشجّع على ارتكاب الفاحشة ، مع ما فيه من إثارة العداوة والبغضاء بين المؤمنين ، وتقطيع أواصر الأخوة الإيمانية ، فقال الله تعالى فيها:

}يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ.{....

*** * ***

(7)

تعريفات للأجنحة الثلاثة

أطلقت كلمات التبشير والمبشرين ، والاستشراق والمستشرقين والاستعمار والمستعمرين بمعانٍ ودلالات جرى بها العرف في الغرب والشرق ، وغدت مصطلحاتٍ يراد منها ما شاع في العرف ، فنحن نطلقها وفق ما جرى عليه الاصطلاح ، ولو كانت دلالاتها اللغوية الأصلية تخالف ما تطوّرت إليه في الاصطلاح أو في واقع ما تطلق عليه ، أو من تطلق عليه.

وفيما يلي تعريف بهذه الكلمات:

التبشير :تعريف أطلقه رجال الكنيسة النصرانية على الأعمال التي يقومون بها لتنصير الشعوب غير النصرانية ،ولا سيّما المسلمون.

ثمّ تحوّل هدف التبشير داخل الشعوب المسلمة إلى غاية التكفير ، وإخراج المسلمين عن دينهم ، ولو إلى الإلحاد والكفر بكل دين.

والمبشرون :هم الذين يجنّدون أنفسهم للقيام بمهمات التبشير ، سواء أكانوا من العاملين أو العاملات في السلك الكنسي أو المتطوعين والمتطوعات من ذوي الاختصاصات الأخرى ، وذلك عن طريق الدعوة إلى النصرانية صراحة ، أو عن طريق التعليم المنهجي ، أو التثقيف العام ، أو الخدمات الصحية أو الاجتماعية أو غيرها ودسّ الأفكار التبشيرية فيها.

وأصل) التبشير (في اللغة الإخبار بما هو خير ، أو تبليغ ما هو خير ، ولكن واقع حال المبشرين الصليبيين وأهدافهم من التبشير ، جعلت التبشير يحمل معنىً آخر غير معناه اللغوي الأصلي . فحملت كلمة) التبشير (الدلالة التي سبق بيانها لدى تعريفه الاصطلاحي الشائع.

الاستشراق : تعبير أطلقه الغربيون على الدراسات المتعلقة بالشرقيين ، شعوبهم وتاريخهم وأديانهم ولغاتهم وأوضاعهم الاجتماعية ، وبلادهم وأرضهم وحضاراتهم وكل ما يتعلق بهم.

وكان هدفهم الأساسي دراسة الإسلام والشعوب الإسلامية ، لخدمة أغراض التبشير من جهة ،

وخدمة أغراض الاستعمار الغربي لبلدان المسلمين من جهة أخرى ، ولإعداد الدراسات اللازمة لمحاربة الإسلام وتحطيم الأمة الإسلامية.

والمستشرقون :هم الذين يقومون بهذه الدراسات من غير الشرقيين ، ويقدّمون الدراسات اللازمة للمبشرين ، بغية تحقيق أهداف التبشير ، وللدوائر الاستعمارية بغية تحقيق أهداف الاستعمار.

ومع الدراسات الاستشراقية الموجهة لأغراض التبشير والاستعمار قام بعض محبي العلم بدراسات استشراقية حيادية غير موجهة ، وكان من بعض هؤلاء إنصاف للحقيقة ، وبعض هؤلاء المنصفين تأثر بالإسلام وبالحضارة الإسلامية فأسلم.

الاستعمار : تعبير أطلق على استيلاء شعب بالقوة العسكرية على شعب آخر لنهب ثرواته واستغلال أرضه وتسخير طاقات أفراده لمصالح المستعمرين.

ويرافق ذلك اتخاذ مخططات تحويل هذا الشعب عن دينه ومفاهيمه ومبادئه وأخلاقه وسلوكه الفردي والاجتماعي إلى ما عليه دولة الشعب الغالب المستعمر ، من مبادئ ونظم وعادات إذا كان بين الغالب والمغلوب تباين في ذلك.

وأصل الاستعمار في اللغة طلب التعمير والسعي لتحقيق العمران ، ولكن الواقع والأهداف النفسية للمستعمرين أمور جعلت الاستعمار يحمل معنى آخر غير معناه اللغوي الأصلي ، فحملت كلمة "الاستعمار "الدلالة التي سبق بيانها لدى تعريفه الاصطلاحي الشائع.

الفصْل الثالث

المستَشرقون وَأعمَالـهمْ

1- تعريف عام بالاستشراق والمستشرقين.
2- موجز تاريخ الاستشراق.
3- مدارس الاستشراق.
4- دوافع المستشرقين وأهدافهم.
5- مجالات أنشطة المستشرقين.
6- أخطر وسائل المستشرقين الفكرية.
7- موازين البحث عند المستشرقين.
8- الجامعات الغربية وأثر المستشرقين فيها على المسلمين.
9- مقارنة بين التبشير والاستشراق وأعمالهما.
10- المستشرقون يدركون قدرة الإسلام الذاتية.

(1)

تعريف عام بالاستشراق والمستشرقين

سبق في الفصل الثاني من هذا الكتاب تعريف الاستشراق والمستشرقين ، وإعادةً توضيحاً له في بدء الفصل الخاصّ ببحث هذا الجناح من أجنحة المكر بالإسلام والمسلمين أبيّن ما يلي:

تعريف الاستشراق

تعبير أطلقه غير الشرقيين على الدراسات المتعلقة بالشرقيين) : شعوبهم وتاريخهم وأديانهم ولغاتهم وأوضاعهم الاجتماعية وبلدانهم وسائر أراضيهم وما فيها من كنوز وخيرات وحضاراتهم وكل ما يتعلق

بهم.(

وكان هدف الغربيين من هذا الإطلاق العام الذي يشمل كل الشرق والشرقيين ، مسلمين أو غير مسلمين ، أن يكون غطاءً للهدف الأساسي ، الذي هو دراسة كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين لخدمة أغراض التبشير من جهة ، وأغراض الاستعمار الغربي لبلدان المسلمين من جهة أخرى ، ثم لإعداد الدراسات اللازمة لمحاربة الإسلام وتحطيم الأمة الإسلامية وتجزئتها وتفتيت وحدتها.

ثم توسعت الدراسات الاستشراقية بعد توسع الاستعمار الغربي في الشرق ، فتناولت جميع ديانات الشرق وعاداته وحضاراته وجغرافيته وتقاليده ولغاته وكل ما يتعلق به.

المستشرقون

هم الذين يقومون بالدراسات الاستشراقية من غير الشرقيين ، ويقدمون دراساتهم ونصائحهم ووصاياهم:

1- للمبشرين بغية تحقيق أهداف التبشير.

2- وللدوائر الاستعمارية بغية تحقيق أهداف الاستعمار.

وكثير من المستشرقين قساوسة منتظمون في السلك الكنسي ، فهم بمقتضى مهنتهم أصحاب مهمات تبشيرية.

وآخرون منهم موظفون ببلدانهم في الدوائر السياسية والإدارية المختصة بشؤون الاستعمار بصفة باحثين أو مستشارين أو نحو ذلك.

واندس في الاستشراق يهود كثيرون ينافقون النصارى ويخدمون سراً أهدافاً يهودية ضمن المخطط اليهودي العام.

وظهر ضمن المستشرقين نفرٌ عُني بالدراسات الاستشراقية ، رغبة في البحث العلمي المتجرد ، دون أن يكون مدفوعاً بدافع تبشيري ، أو دافع استعماري ، وكان من بعض هؤلاء إنصاف للحقيقة دون تحيز ، وبعض هؤلاء المنصفين تأثر بالإسلام وبالحضارة الإسلامية ، واستطاع أن يتحرر من تقاليده العمياء وعصبيته الجاهلية فأسلم.

ثم اتسعت الدراسات الاستشراقية لأهداف متعددة ، اقتصادية وسياسية وعسكرية وعلمية وغير ذلك.

واحتلَّ كثير من المستشرقين مراكز علمية مرموقة في الجامعات الغربية ، وأوكل إليهم في هذه الجامعات أمر منح الشرقيين في العلوم الإسلامية والعربية الشهادات العليا) : الماجستير والدكتوراة (، بغية صناعة حملة شهادات من بلدان العالم الإسلامي ، طبق ما يريد المبشرون والمستعمرون.

واستغلّ اليهود هذا المجال من مجالات الاستشراق استغلالاً واسعاً ، حتى أمسى عدد وفير من كراسي الأستاذية للدراسات الاستشراقية في الجامعات الغربية يحتله يهود ، يعملون لتحقيق أهداف يهودية ، وهم يلبسون بين النصارى أقنعة مزوّرة ، كما أن لليهود مندسين كثيرين في كل مجال من مجالات الاستشراق الأخرى بأسماء يهودية أو بأسماء مستعارة أخرى.

(2)

موجز تاريخ الاستشراق

لا يعرف بالضبط من هو أوَّل غربي عني بالدراسات الشرقية ،ولا في أي وقت كان ذلك ، ولكن من المؤكد أن بعض الرهبان الغربيين قصدوا الأندلس في إبان عظمتها ومجدها ، وتثقفوا في مدارسها ، وترجموا القرآن والكتب العربية إلى لغاتهم ، وتتلمذوا على علماء المسلمين في مختلف العلوم ، وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات...

ومن أوائل هؤلاء الرهبان الراهب الفرنسي" جربرت "الذي انتخت بابا لكنيسة روما عام) ٩٩٩م (، بعد تعلمه في معاهد الأندلس وعودته إلى بلاده ، ومنهم الراهب" بطرس المحترم ١٠٩٢-١١٥٦ " ، ومنهم الراهب" جيراردي كريمون ١١١٤-١١٨٧."

وبعد أن عاد هؤلاء الرهبان إلى بلادهم نشروا الثقافة المكتوبة باللسان العربي ، ومؤلفات أشهر علمائهم ، ثم أسست المعاهد للدراسات العربية أمثال مدرسة" بادوي "العربية ، وأخذت الأديرة والمدارس الغربية تدرس مؤلفات العرب المترجمة إلى اللاتينية – وهي لغة العلم في جميع بلاد أوربا يومئذ -، واستمرت الجامعات الغربية تعتمد على الكتب العربية وتعتبرها المراجع الأصلية للدراسة قرابة ستة قرون.

ولم ينقطع منذ ذلك الوقت وجود أفراد درسوا الإسلام واللغة العربية وترجموا القرآن وبعض الكتب العربية العلمية والأدبية ، حتى جاء القرن الثامن عشر – وهو العصر الذي بدأ فيه الغرب في استعمار العالم الإسلامي والاستيلاء على ممتلكاته – فإذا بعدد من علماء الغرب ينبغون في الاستشراق ، ويصدرون لذلك المجلات في جميع الممالك الغربية ، ويغيرون على المخطوطات العربية في البلاد العربية والإسلامية ، فيشترونها من أصحابها الجهلة ، أو يسرقونها من المكتبات العامة التي كانت في نهاية الفوضى ، وينقلونها إلى بلادهم ومكتباتهم ، وإذ بأعداد هائلة من نوادر المخطوطات العربية تنتقل إلى مكتبات أوربا ، وقد بلغت في أوائل القرن التاسع عشر مائتين وخمسين ألف مجلداً ، وما زال هذا العدد يتزايد حتى اليوم.

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر عقد أول مؤتمر للمستشرقين في باريس عام) ١٨٧٣م (، وتتالى عقد المؤتمرات التي تلقى فيها الدراسات عن الشرق وأديانه وحضاراته ، وما تزال تعقد حتى هذه الأيام.

فقد بدأ الاستشراق إذن منذ دقَّت جيوش الفتح الإسلامي أبواب أوربا العريضة ، وكان المسلمون قد احتلوا عرش السيادة الدولية ، وملأوا سمع الزمان وبصره وقلبه وسائر مشاعره.

وأخذت أوربا الغارقة في الجهل والتخلف الحضاري يومئذ تبحث عن أسباب نهضة المسلمين ، وبلوغهم هذا المجد العظيم الذي بلغوه ، وأخذ بعض رجال الكنيسة الأوربيين يدرسون علوم هؤلاء الفاتحين ولغاتهم ، لعلهم يظفرون بما يوقفون به مد هذا الفتح الإسلامي ، ولعلهم يكتبسون من علوم المسلمين ما ينفعهم في إنقاذهم من تخلفهم ، ويفتح لهم أبواب الارتقاء ، فكان الاستشراق طلباً لعلوم الشرقيين ولغاتهم وأوضاعهم ، وبحثاً عنها.

وفي أعقاب الحروب الصليبية وضعت الخطة لغزو المسلمين بوسائل أخرى غير وسيلة الحرب المسلحة بالأسلحة المادية ، واقتضت خطة الغزو الجديد التوسع في الدراسات الاستشراقية ، لتكون تمهيداً لهذا الغزو ، وإعداداً لشروطه الفكرية والنفسية.

ولما كان المحركون للحرب الصليبية من رجال الكهنوت الأوربيين والعلوم العليا تكاد تكون منحصرة في الكنيسة لديهم يومئذ ، كان أوائل المتوجهين للدراسات الشرقية من هؤلاء الرجال ، ولا ريب أن أغراضهم في ذلك تواكب أغراض الحروب الصليبية التي أخذت أسلوباً جديداً في الغزو ، غير أسلوب الغزو المادي المسلح بالأدوات الحديدية ،وتتفق مع أهداف التبشير بالمسيحية.

وانطلق المتوجهون للدراسات الشرقية يعملون في هذا المضمار بجد ، ويترجمون إلى لغاتهم كتباً

كثيرة من كتب المسلمين.

ونبتت نابتة الفكر الاستعماري في دول أوربا بعد نهضتها ، واحتاج الطامعون باستعمار بلاد المسلمين إلى زاد من الدراسات الشرقية ، فوجهت الدوائر الاستعمارية أعداداً من المتعلمين في بلادها للتفرغ للدراسات الشرقية ، من جوانب متعددة : لغوية ودينية واجتماعية وتاريخية وسياسية وغير ذلك . وكان كثير منهم من منسوبي الكنيسة الذين يحملون في نفوسهم أهداف التبشير.

فالتقت في الاستشراق أهداف جمعيات التبشير وأهداف الدوائر الاستعمارية ، ومن طبيعة الأهداف التي تسبق الأعمال في التصور أن تكون موجهة للأعمال ومؤثرة فيها . إلا من نما في قلبه وجدان حب الحق ، وسيطرت عليه الرغبة بنصرته ولو كان ضد هواه ، وضد عصبياته الخاصة.

ثم أسست للاستشراق معاهد ، وتألفت جمعيات من المستشرقين للتعاون في الأعمال المتعلقة بالدراسات والعلوم الشرقية ، كنشر بعض المخطوطات العربية ووضع الفهارس الشاملة لبعض الكتب الإسلامية الأصول , ووضع بعض المعاجم المفهرسة ، وتفصيل آيات القرآن الكريم بحسب موضوعاتها ، ونحو ذلك.

ودخلت هذه الدراسات الشرقية في الجامعات الكبرى ، فكان لها فروع حتى مستوى تحصيل شهادة الدكتوراة ، وأخذ فريق من المستشرقين يؤلف المؤلفات المتعلقة بالعلوم الإسلامية لخدمة أهداف الاستشراق الأساسية الرامية إلى تشويه الإسلام وتشويه التاريخ ألإسلامي ووضع الشبهات وتصيد الأدلة لها ، وتوجيه الانتقادات الملفقة إلى أحكام الإسلام وشرائعه ، وتتبع الأخبار الساقطة والأقوال الضعيفة المردودة ، وتفسير الظواهر تفسيراً مادياً بحسب ما يروق لهم ، وشرح النصوص القرآنية على أساس أن القرآن ليس من كلام الله ،وليس كتاباً منزلاً ، وشرح الأحاديث النبوية على أساس أن محمداً عبقري من الناس وليس برسول كسائر الرسل ، وتعليل الفتح الإسلامي بالرغبات الشخصية المماثلة للرغبات التي توجد عند الاستعماريين ، وإبعاد كل دافع ديني إسلامي عن كل حدث تاريخي للمسلمين ، ومحاولات التحريف في النصوص عند الاستشهاد بها ، واللجوء إلى المغالطات الكثيرة لدى مناقشة الموضوعات الإسلامية ، وتعمد إبراز سقطات الفساق من المسلمين في مدى تاريخهم الطويل والتشكيك بصحة الأحاديث الصحيحة المروية بتوجيه المطاعن إلى رواة الحديث ولو كانوا من أصحاب الرسولﷺ ، والتشكيك بالقرآن الكريم ، بتوجيه المطاعن المفتراة إلى نقله وتدوينه والقراءات الثابتة فيه وإلى مضامينه ، وبتوجيه المطاعن إلى ظاهرة الوحي التي تلقى بها الرسولﷺ كتاب ربه ، إلى غير ذلك من أمور لا تحصى ، وأساسها جميعاً الرغبة بإبطال الحق تعصباً واتباعاً للهوى.

ورأى اليهود الاستشراق باباً خطيراً من أبواب التسلسل إلى البلاد التي يحلمون بالسيطرة عليها وفق طريقتهم ، ويريدون أن يتخذوا لأنفسهم صنائع فيها من أبنائها ، فتخصص فريق منهم بالدراسات الشرقية وتابعوا المسيرة ضمن الخطط اليهودية ، حتى احتل اليهود عدداً وفيراً من كراسي الدراسات الشرقية في الجامعات الكبرى ، وأخذوا يخدمون الأغراض اليهودية الصهيونية في هذا المجال تحت ستار خدمة أغراض المستشرقين المسيحيين وأغراض الدوائر الاستعمارية.

ودخل الأوربيون الشرقيون بعد نجاح الثورة الشيوعية في بلادهم ميادين الاستشراق تبعاً للغرب وبغية استخدام دراساتهم في هذا المجال لتقويض الإسلام واستدراج الشعوب الإسلامية إلى الشيوعية .

(3)

مدارس الاستشراق

وإذْ دخل ميادين الاستشراق عناصر مختلفة الغايات والأهداف ، على الرغم من أن ساحة عمل الجميع واحدة ،كان باستطاعتنا أن نلاحظ أنه قد غدا للاستشراق عدة مدارس ، كلٌ منها له أهداف تنسجم مع المذهب الفكري أو الديني الذي يتبعه المنتسبون إليها.

وباستطاعتنا أن نقسّم هذه المدارس إلى ما يلي:

1-المدرسة النصرانية ، وهي تنقسم إلى فرعين:

أ -الكاثوليكية.

ب -البروتستانتية.

وهذان الفرعان يلتقيان في الأعمال والأهداف ، وإن اختلفا في بعض الآراء المذهبية.

2-المدرسة اليهودية:

وهذه المدرسة ذات أهداف خاصة تخدم مخططات اليهودية العالمية ، مهما لبست في البيئات التي تكون فيها من ألبسة النفاق تمالئ فيها هذه البيئات ، ومهما سترت وجهها الحقيقي بأقنعة مزورة.

3-المدرسة الإلحادية العامة:

والمنتمون إلى هذه المدرسة هم المستشرقون الملحدون في الغرب ، وتتلخص أهدافهم بنشر الفكر

الإلحادي ، وإقامة مفاهيم الحياة على المادية التي تنكر وجود الله عز وجل ، وهؤلاء موزعون في مختلف المذاهب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

4-المدرسة الإلحادية الشيوعية:

والمنتمون إلى هذه المدرسة هم المستشرقون الشيوعيون ، وتتلخص أهدافهم بنشر الإلحاد والشيوعية معاً ، واستدراج شعوب الأمة الإسلامية إليهما.

(4)

دوافع المستشرقين وأهدافهم

باستطاعتنا أن نتلمس دوافع المستشرقين وأهدافهم من أعمالهم ، ومما حققوه من أهداف ، ومن النظرات التاريخية إلى واقع حال الدول الغربية ، قبل أن تنبت فيها نابتة الاستشراق ، وإلى واقع حالها بعد ذلك ،ومن النظر إلى صلة الاستشراق بالتبشير بالنصرانية ، وإلى صلته بالاستعمار.

وفيما يلي خلاصة عن دوافعهم وأهدافهم مع العلم بأن الدوافع تلتقي مع الأهداف ،باعتبار أن الدافع يمثل المحرض النفسي لاتخاذ الوسائل التي توصل إلى الأهداف الغائية من العمل.

الأول : الدافع الديني أو المذهبي ضد الإسلام والمسلمين

عرفنا أن الاستشراق بدأ بالرهبان والقساوسة والنصارى ، ثم استمر بعد ذلك ومعظم المستشرقين من رجال الكهنوت المسيحي ، وكان هؤلاء مدفوعين بدافع الانتصار للنصرانية ، والرغبة بتنصير المسلمين الذين اكتسحوا امبراطوريتهم واستطاع دينهم الحق أن يغلب النصرانية المحرفة في نفوس أتباعها.

واتجه هؤلاء للطعن في الإسلام وتشويه محاسنه وتحريف حقائقه بغية إقناع جماهيرهم التي تخضع لزعاماتهم الدينية بأن الإسلام دين لا يستحق الانتشار ، وبأن المسلمين قوم همج لصوص سفاكو دماء يحثهم دينهم على الملذات الجسدية ويبعدهم عن كل سمو روحي وخلقي.

ثم اشتدت حاجتهم إلى هذا الهجوم في العصر الحاضر ، بعد أن رأوا الحضارة الحديثة قد زعزعت أسس العقيدة بالنصرانية عند الغربيين ، وأخذ تشكُّكُهم بكل التعاليم التي كانوا يتلقونها عن رجال الدين عندهم يزداد ، فلم يجدوا وسيلة أجدى من تشديد الهجوم على الإسلام لصرف أنظار الغربيين عن نقد ما عندهم من عقيدة وكتب مقدسة . وهم يعلمون ما تركته الفتوحات الإسلامية الأولى ، ثم

الحروب الصليبية ثم الفتوحات الإسلامية العثمانية في أوربا بعد ذلك في نفوس الغربيين من خوف شديد من قوة الإسلام ، ومن كره لأهله ، فاستغلوا هذا الجو النفسي ، وازدادوا نشاطاً في الدراسات الإسلامية.

وحين قامت جمعيات التبشير ، ووضعت من أهدافها تحويل المسلمين عن دينهم إلى النصرانية ، أو إلى اللادينية والإلحاد الكامل ، كانت دوافع الاستشراق لدى المبشرين وأنصارهم ومؤيديهم هي دوافع التبشير أنفسها ، وهي تتلخص بالرغبة الملحة في سلخ المسلمين عن دينهم ، ومحاولة إدخالهم في النصرانية ، أو إبقائهم ملاحدة لا دين لهم ، حتى يكونوا أطوع للدول النصرانية الطامعة باستعمار بلاد المسلمين ، واستغلال خيراتها.

ومن خلال معرفتنا لهذا الدافع نستطيع معرفة الهدف الغائي المرتبط به.

فهدف هذا الدافع : هو إخراج المسلمين عن دينهم ، فإن أمكن تنصيرهم فذالك ، وإلا فإبقاؤهم لا دين لهم مطلقاً هدف مرجو يحقق للنصارى منافع ومصالح سياسية واقتصادية واستعمارية وغير ذلك .

ولإخراج المسلمين عن دينهم وسائل كثيرة ، منها:

-1تنفير المسلمين من دينهم وحملهم على كراهيته.
-2تشويه الإسلام ، والتشكيك في أسسه ، وتوجيه المطاعن له.
-3تشويه التاريخ الإسلامي ، وتشويه حضارة المسلمين ، وكل ما يتصل بالإسلام من علم وأدب وتراث.
-4نبش الحضارات القديمة وإحياء معارفها ، وبعث الطوائف الضالة والحركات الهدامة القديمة.
-5تزيين ما في المسيحية من تعاليم وأحكام.
-6استدراج المسلمين للأخذ بالحضارة المادية الحديثة ، وما فيها من مغريات للنفوس ، ومرضيات للأهواء ، وآسرات للشهوات ، وباهرات للنظر.
-7ادعاء أن الفقه الإسلامي مقتبس من القانون الروماني.
-8ادعاء أن أحكام الشريعة الإسلامية لا تتلاءم مع التطور الحضاري.
-9الدعوة إلى نبذ اللغة العربية وتبديل طريقة كتابتها.

الثاني : الدافع الاستعماري

لم ييأس الصليبيون بعد هزيمتهم في الحروب الصليبية من العودة إلى احتلال بلاد العرب وسائر بلاد المسلمين ، فاتجهوا لدراسة هذه البلاد ، في كل شؤونها : من عقيدة وعادات وأخلاق وثروات ولغات وتاريخ وغير ذلك مما يتعلق بها من جغرافية وسكان بغية أن يتعرفوا إلى مواطن القوة فيها فيضعفوها ، وإلى مواطن الضعف فيغتنموها.

ثم لما تم لهم الاستيلاء العسكري والسيطرة السياسية ، كان من دوافع الدراسات الاستشراقية الرغبة بإضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوس المسلمين ، وبث الوهن والارتباك في تفكيرهم ، وكان لهم في ذلك وساوس كثيرة ، تسللوا بها إلى نفوس أبناء المسلمين ، ومن هذه الوساوس ما يلي:

1ً -التشكيك بفائدة ما في أيدي المسلمين من تراث ، وبما عندهم من عقيدة وشريعة وقيم إنسانية.

والغرض من ذلك أن يفقدوا ثقتهم بأنفسهم ، ويرتموا في أحضان الغرب ، يستجدون منه المقاييس الأخلاقية والمبادئ والعقائد والحلول لمشاكلهم الحياتية والعادات والتقاليد وأنواع السلوك ليتم للغرب بذلك إخضاع المسلمين لحضارته وثقافته إخضاعاً كاملاً.

2ً -إحلال مفاهيم جديدة ، أو إحياء مفاهيم ماتت منذ تمكن الإسلام من قلوب المسلمين ، كالقوميات الفرعونية والفينيقية والآشورية والعربية الكردية والتركية والفارسية ونحو ذلك ليتسنى لهم تشتيت شمل الأمة الإسلامية الواحدة ، التي تجمعها رابطة واحدة ، هي وحدة الدين الذي يهيمن على جميع مشاعر الإنسان الداخلية وسلوكه الظاهر.

وللاستشراق الذي يقوم به الشيوعيون دافع مشابه ، وهو دافع يطمع بالتسلط الكامل على بلاد المسلمين.

ومن خلال معرفتنا لهذا الدافع نستطيع معرفة الهدف الغائي المرتبط به.

فهدف هذا الدافع : هو السيطرة على بلدان العالم الإسلامي ، وعلى الشعوب الإسلامية ، طمعاً باستغلال الأرض واستعباد الناس والسيطرة على كل شيء وسيلة لتحقيق أهواء النفوس وشهواتها ،وأن يكن لها العلو في الأرض.

الثالث : الدافع الاقتصادي

ومن الدوافع التي حرضت كثيراً من الغربيين على الدراسات الاستشراقية رغبتهم بغزو البلاد الإسلامية غزواً اقتصادياً ،يهدفون فيه إلى الاستيلاء على الأسواق التجارية والمؤسسات المالية المختلفة والاستيلاء على الثروات الأرضية واستغلال الموارد الطبيعية والحصول عليها بأبخس الأثمان وإماتة الصناعات المحلية القديمة ، لتكون بلاد المسلمين بلاد استهلاك لما تصدره المصانع الآلية الغربية .

وضمن هذا الدافع وجهت المؤسسات الاقتصادية الغربية ، من يهتمون بالدراسات الاستشراقية ، ليكونوا وسطاءهم ورسلهم ومستشاريهم والمترجمين لهم في مهماتهم ومطالبهم الاقتصادية أو أبدت استعدادها لاستخدام من يعمل لهم في هذا المجال ، فاتجه فريق من الغربيين لهذه الدراسات ، طمعاً بأن يجدوا أعمالاً لهم لدى المؤسسات الاقتصادية.

وظهر أيضاً فريق من الباحثين العلميين اهتم بالدراسات الاستشراقية ، ليقوم نشر كتب التراث الإسلامي ، والاستفادة من نشرها في تحصيل الثروات التي يحصل عليها الناشرون عادة.
وهكذا صارت الدراسات الاستشراقية وسيلة من وسائل كسب المال لكثير من المستشرقين.
ومن خلال معرفتنا لهذا الدافع نستطيع معرفة الهدف الغائي المرتبط به.

فهدف هذا الدافع : تحصيل الأموال والمطامع الاقتصادية

الرابع : الدافع السياسي

قبل الاستعمار وبعد تحرر البلاد الإسلامية منه رأت الدوائر الاستعمارية أن حاجتها السياسية تقضي بأن يكون لها في قنصلياتها ، وسفاراتها ومندوبيها في الأمم المتحدة وسائر المؤسسات الدولية ، من لديهم زاد جيد من الدراسات الاستشراقية ، ليقوم لهم هؤلاء بمهمات سياسية متعددة مرتبطة بالشعوب الإسلامية ، وبلدان العالم الإسلامي ، ومنها ما يلي:

1. -الاتصال بالسياسيين والتفاوض معهم ، لمعرفة آرائهم واتجاهاتهم.
2. -الاتصال برجال الفكر والصحافة للتعرف على أفكارهم وواقع بلادهم.
3. -بث الاتجاهات السياسية التي تريدها دولهم ، فيمن يريدون بثها فيهم ، وإقناعهم بها.
4. -الاتصال بعملائهم وأجرائهم الذين يخدمون أغراضهم السياسية داخل شعوب الأمة الإسلامية .

وكم بثَّ حاملو هذا الدافع في شعوب المسلمين من أفكار؟ !وكم دسوا من دسائس؟ !وكم استخدموا من أجراء لإثارة الفتن وإقامة ثورات وانقلابات عسكرية؟.!

إلى غير ذلك من أعمال.

ومن خلال معرفتنا لهذا الدافع نستطيع معرفة الهدف الغائي المرتبط به.

فهدف هذا الدافع : تحقيق غايات سياسية ، تريد تحقيقها الدول الموجهة لهذا النوع من الدراسات لتسيير دول العالم الإسلامي في أفلاكها.

الخامس : الدافع العلمي النزيه

ومن المستشرقين نفر قليل جداً أقبلوا على الدراسات الاستشراقية بدافع من حب الاطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها.

وكان هؤلاء النفر من المستشرقين أقل من غيرهم خطأً في فهم الإسلام وتراثه ، لأنهم لم يكونوا يتعمدون أن يدسوا أو يحرفوا.

لذلك جاءت بحوث هؤلاء أقرب إلى الحق ، وإلى المنهج العلمي السليم ، من أبحاث الجمهرة الغالبة من المستشرقين ، بل منهم من اهتدى بدراسته إلى الإسلام ، وآمن به ، وانتمى إلى الأمة الإسلامية .

على أن هؤلاء قلما يوجدون إلا حين يكون لهم من الموارد المالية الخاصة ما يمكنهم من الانصراف إلى الدراسات الاستشراقية بأمانة وإخلاص ، لأن أبحاثهم المجردة عن الهوى الجانح لا تلقى رواجاً لا عند رجال الدين ، ولا عند رجال السياسة ، ولا عند عامة الباحثين الغربيين.

بل كثيراً ما يتعرض هؤلاء لمضايقات ومقاومات شديدة ، من قبل رجال الدين ورجال السياسة في بلدانهم.

ولما كان الاستشراق النزيه الراغب بالبحث العلمي الحيادي المتجرد عن الهوى الجانح ، لا يدر على مرتاديه مكاسب ومغانم ، كان من الطبيعي أن يندر وجود هؤلاء المرتادين في أوساط المستشرقين.

ومن خلال معرفتنا لهذا الدافع نستطيع معرفة الهدف الغائي المرتبط به.

فهدف هذا الدافع : إشباع نهم علمي متجرد ، وتحصيل معرفة صحيحة تتصل بأمة ذات علم ، وحضارة أصيلة.

وهؤلاء مع إخلاصهم في البحث والدراسة لا يسلمون من الأخطاء والاستنتاجات البعيدة عن الحق ، إما لجهلهم بأساليب اللغة العربية ، وإما لجهلهم بالأجواء الإسلامية التاريخية على حقيقتها ، فيتصورونها كما يتصورون مجتمعاتها ، ناسين الفروق الطبيعية والنفسية والزمنية التي تفرق بين الأجواء التاريخية التي يدرسونها ، وبين الأجواء الحاضرة التي يعيشونها.

ومن هؤلاء من يعيش بقلبه وفكره في جو البيئة التي يدرسها ، فيأتي بنتائج تنطبق مع الحق والصدق والواقع ، ولكن هؤلاء يلقون عنتاً من سائر المستشرقين ، إذ سرعان ما يتهمون بالانحراف عن المنهج العلمي ، أو الانسياق وراء العاطفة ، أو الرغبة في مجاملة المسلمين والتقرب إليهم ، كما فعلوا مع" توماس أرنولد "حين أنصف المسلمين في كتابه العظيم" الدعوة إلى الإسلام "، فقد برهن فيه على تسامح المسلمين في جميع العصور مع مخالفيهم في الدين ، على عكس مخالفيهم معهم . هذا الكتاب الذي يعتبر من أدق وأوثق المراجع في تاريخ التسامح الديني في الإسلام ، يطعن فيه المستشرقون المتعصبون بأن مؤلفه كان مندفعاً بعاطفة قوية من الحب والعطف على المسلمين ، مع أنه لم يذكر حادثة إلا أرجعها إلى مصدرها.

ومن هؤلاء من يؤدي به البحث الخالص لوجه الحق إلى اعتناق الإسلام والدفاع عنه في أوساط أقوامهم الغربيين ، كما فعل المستشرق الفرنسي الفنان" دينيه "الذي عاش في الجزائر فأعجب بالإسلام وأعلن إسلامه ، وتسمى باسم ناصر الدين دينيه "وألف مع عالم جزائري كتاباً عن سيرة الرسولﷺ ، وله كتاب" أشعة خاصة بنور الإسلام "بيَّن فيه تحامل قومه على الإسلام ورسوله ، وقد توفي هذا المستشرق المسلم في فرنسا ، ونقل جثمانه إلى الجزائر ودفن فيها.

ومنهم أيضاً المستشرق" عبد الكريم جرمانوس "وهو عالم مجري اعتنق الإسلام في الهند ، ولد سنة (1885) وتوفي سنة) ١٩٧٩م (وكان يتمنى أن يعيش مائة عام ، لأن اللغة العربية في رأيه تحتاج إلى مائة سنة لفهمها . كان عضواً في المجمع اللغوي في القاهرة . أحب الإسلام واللغة العربية وخدمهما . ألف أكثر من مائة وخمسين كتاباً عن الإسلام ، منها:

-1الله أكبر.
-2الحركات الحديثة في الإسلام.
-3شوامخ الأدب العربي.
-4معاني القرآن.
-5دراسات في التركيبات اللغوية العربية.

وقد أجاد عدة لغات منها الإنكليزية والفارسية والأردية والتركية مع العربية.

ومنهم الطبيب الفرنسي" موريس بوكاي "صاحب كتاب" دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة "الذي أثبت فيه موافقة ما جاء في القرآن لأحدث الحقائق العلمية التي توصل إليها الناس بوسائلهم ، بخلاف ما في الكتب التي يزعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى أنها مقدسة.

ومنهم المستشرق الأسباني الدكتور" سيمون هايك "كما نقل عنه : محمود بيومي في جريدة المدينة العدد) ٨٢٠٣ (الخميس27/03/1410 هـ.
وغيرهم ممن عرفوا الحق واتبعوه.

مجالات أنشطة المستشرقين

تخصص المستشرقون في مجالات الأنشطة المعرفية والتوجيهية العليا ، منها : التعليم الجامعي ، والمؤسسات العالمية لتوجيه التعليم والتثقيف ، والوظائف الاستشارية العليا للدول الغربية ، وتأليف وإصدار الكتب والموسوعات العلمية ، وإصدار المجلات الثقافية ، وعقد مؤتمرات وإلقاء محاضرات علمية ، وعقد ندوات ، ولقاءات حوار حول موضوعات يهم المستشرقين دس أفكارهم فيها ، ونحو ذلك.

وقد تفرغ منهم مجموعات متعددة لأداء المهمات الاستشراقية ، في كل مجال من المجالات التالية:

الأول : كراسي الدراسات الإسلامية العربية والشرقية بوجه عام ، في الجامعات الغربية ، واتخاذها بؤرة لاصطياد أبناء الشعوب الإسلامية ، والتأثير عليهم فكرياً وسلوكياً ونفسياً.

الثاني : تأسيس الجامعات العلمية في بلدان العالم الإسلامي خاصة وبلدان الشرق عامة ، لتخريج أجيال منسلخة من إسلامها ، ومستعدة لتقبل المذاهب الفكرية المعاصرة الوافدة ، ولكل ما يلقى إليها من أفكار ومبادئ.

مثل : كلية بغداد التي أسسها المطران" : وليم آ – رايس (والأب" : إدوارد ف .مدارس "كما ذكر المبشر ، الأب" : رتشرد يوسف مكارتي اليسوعي "في إهداءه لكتاب التمهيد للباقلاني ، الذي

حققه وأخرجه عام ١٩٧٥م والجامعة الأمريكية في بيروت ، والجامعة الأمريكية في مصر ، والجامعة الأمريكية في تركيا.

الثالث : إنشاء الموسوعات العلمية الإسلامية ، والشرقية بوجه عام ، التي تتناول الشرقيات من جميع جوانب المعرفة ، واتخاذها وسيلة لدس الأفكار الاستشراقية السامة التي يريدون دسها ، وإقناع أجيال الشعوب الإسلامية بها.

والموسوعة الإسلامية التي أصدرها المستشرقون بعدة لغات ، قد حُشد لها كبار المستشرقين ، وأشدهم عداءً للإسلام ،ودُسَّ فيها السم بالدسم ، ونثرت فيها أباطيل كثيرة عن الإسلام والمسلمين ، ومن المؤسف أنها مرجع لكثير من المثقفين من المسلمين ، إذ يعتبرونها حجة فيما تورده من معارف حول قضايا إسلامية ، وهي فيها غير نزيهة ، لأن كتابها منحازون ضد معظم قضايا الإسلام والمسلمين.

وكذلك الموسوعات العامة : كالموسوعة الفرنسية) لاروس (والموسوعة البريطانية.

الرابع : عقد المؤتمرات الاستشراقية ، لتبادل الرأي فيما يحقق أهداف الاستشراق ، وما زالوا يعقدون هذه المؤتمرات منذ عام) ١٨٧٣م (وحتى الآن.

الخامس : عقد الندوات ولقاءات التحاور الرامية إلى بث الأفكار الاستشراقية والترويج لها ، وإقناع مثقفي العالم الإسلامي بها.

وفي هذه الندوات ولقاءات التحاور يستدرجون بعض المسلمين من حيث يشعر هؤلاء أو لا يشعرون لتحريف الإسلام ، دفاعاً عنه حيناً ، وتطويعاً له حتى يساير المفاهيم الغربية حيناً آخر ، بحيلة مرونة الشريعة الإسلامية.

السادس : إصدار المجلات الخاصة ببحوثهم حول الإسلام والمسلمين وشعوبهم وبلادهم وكل ما يتعلق بهم.

السابع : إمداد إرساليات التبشير بالخبراء من المستشرقين ، ودعمها بما تحتاج إليه من جهودهم.

الثامن : تأليف الكتب في موضوعات مختلفات عن الإسلام ، والرسولﷺ ، والقرآن وتاريخ المسلمين ومجتمعاتهم.

وفي معظم هذه الكتب كثير من التحريف المتعمد في نقل النصوص أو ابتسارها أو في فهمها

واستنباط المعاني منها . وفيها أيضاً كثير من التحريف في تفسير الوقائع التاريخية ، وتعليل أحداثها.

ومن مظاهر تزييفهم ومغالطاتهم في الوقائع التاريخية التعميمات الفاسدة ، إذ يأخذون الحوادث الفردية القليلة من حوادث التاريخ ، ويتخذون منها قاعدة عامة شاملة يدينون بها كل الأفراد ، ويعتبرونها صورة لكل تاريخ المسلمين ، وهذا من التضليلات التي يرفضها أي باحث علمي ، ولا يقبلها صغار العامة فضلاً عن المثقفين ، فكيف بمن يدعون الأمانة العلمية ، ويتظاهرون بالحرص عليها.

وغدت هذه الكتب مرجعاً للمبشرين ، ولكل الدارسين من المسلمين في الجامعات الغربية ، ولكل المستغربين من أبناء الشعوب الإسلامية.

التاسع : إلقاء المحاضرات في الجامعات ، والجمعيات والأندية العلمية ، ومن المؤسف أن أشدهم خطراً وعداءً للإسلام يستطيعون تحريك الأيدي الخفية لاستدعائهم إلى الجامعات العربية والإسلامية ، لإلقاء المحاضرات التي يتحدثون فيها عن الإسلام ، ويدسون فيها ما يستطيعون دسه من أفكار، رغبة في بثها والإقناع بها.

العاشر : نقشر المقالات في المجلات والصحف المحلية للبلاد الإسلامية ، لبث أفكارهم عن طريقها ، والترويج لها بين المسلمين.

وقد استطاعوا أن يستأجروا عدداً من هذه المجلات والصحف لنشر مقالاتهم ، والترويج لأفكارهم.

واستطاعوا أيضاً أن يستأجروا كتاباً وأساتذة جامعيين وغير جامعيين ، وأدباء وشعراء يحملون أفكارهم من أبناء الشعوب المسلمة وينشرونها بأقلامهم وألسنتهم ليكونوا أكثر تأثيراً في الأجيال الناشئة وهؤلاء هم أتباع المستشرقين وذيولهم وأجراؤهم وعملاؤهم من الشرقيين فهم شرقيون مستغربون.

الحادي عشر : ووجه المستشرقون عناية عظمى لإفساد المرأة المسلمة ، عن طريق دعوات تحريرها ، وانطلاقها للعمل في شتى حقول المجتمع ، وإعطائها – بحسب دعواهم المضللة – كامل حريتها وكامل حقوقها.

وأثاروا الشبهات حول أحكام الإسلام الخاصة بشأن المرأة . وافتروا أنواعاً كثيرة من المفتريات. وتبع المستشرقين في ذلك غير المسلمين من مواطني البلاد الإسلامية ومعهم المستغربون الملاحدة

والأجراء من أبناء المسلمين.

ولما رأى أعداء الإسلام أن الريف في البلاد الإسلامية ظل بعيداً عن تيار الاستغراب ، تحركوا بخطوات منظمة لإفساد الريف بوجه عام ، وإفساد المرأة فيه بوجه خاص ، فانطلق المستشرقون يخططون عن طريق التعليم في الريف لإقامة ما أسموه" التربية الأساسية"، وجاءت التوصيات بضرورة العناية بمراكز" التربية الأساسية "في الريف ، لتؤدي دورها المرسوم لها ، في إفساد الريف وتغريبه لا سيما المرأة فيه.

(6)

أخطر وسائل المستشرقين الفكرية

التشكيك – إلقاء الشبهات – المغالطات – تزيين الأفكار البديلة – افتراء الأكاذيب – دس السموم الفكرية بخفاء وتدرج.

ترجع الوسائل الفكرية الرئيسية التي استخدمها المستشرقون لهدم الإسلام وتجزئة المسلمين وتشويه تاريخ الأمة الإسلامية ، وتشويه حاضرها ، وخداع أجيال هذه الأمة بنبذ الإسلام واتباع مناهج وأساليب الحضارة المادية المعاصرة إلى الأصول التالية:

1- التشكيك في مصادر الدين الإسلامي وصحة نبوة الرسول ﷺ.
2- إلقاء الشبهات حول أحكام الإسلام التشريعية ومصادرها.
3- المغالطات.
4- تزيين الأفكار البديلة.
5- افتراء الأكاذيب واختراع التعليلات والتفسيرات الباطلات.
6- التلطف في دس السموم الفكرية بصورة خفية ومتدرجة ، حتى يبتلعها المغزوّون وهم لا يشعرون ، وقد يأخذونها وهم فرحون بحلاوة ما يرافقها .

ونلاحظ في مكتوباتهم حول الإسلام والمسلمين ما يلي:

الأول : التشكيك في صحة رسالة النبي محمد ﷺ ، فجمهور المستشرقين ينكرون أن يكون محمد ﷺ نبياً أوحى الله إليه ، وأنزل عليه كتاباً من لدنه ، ويتخبطون في تفسير مظاهر الوحي التي كان يراها أصحابه ، لا سيما عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، فمن المستشرقين من يرجع ذلك إلى

"صرع "كان ينتاب النبيﷺ حيناً بعد حين ، ومنهم من يرجعه إلى تخيلات كانت تملأ ذهن النبي ﷺ،ومنهم من يفسرها بمرض نفسي ، إلى غير ذلك.

مع أنهم لا ينكرون ظاهرة الوحي في الواقع الإنساني ، لأنهم يعترفون بأنبياء التوراة ، فهم إما يهود أو نصارى ، وكل تفسير سلكوه لظاهرة الوحي عند محمدﷺ يمكن أن تفسر به ظاهرة الوحي عند أنبيائهم الذين يعترفون هم بنبواتهم ، إلا أن تعنتاً مبعثه التعصب الديني هو الذي جعلهم يفرقون بين أمرين متساويين تماماً ، فيعترفون بأحدهما ويجحدون الآخر عصبية عمياء.

الثاني : ويتبع التشكيك في رسالة محمدﷺ إنكارهم كون القرآن كتاباً منزلاً عليه من عند الله عز وجل ، وحين يفحمهم ما ورد في القرآن من حقائق تاريخية عن الأمم الماضية ، مما يستحيل صدوره عن أمي مثل محمدﷺ يزعمون ما زعمه المشركون الجاهليون في عهد الرسول ، فيقولون : إن محمداً استمد هذه المعلومات من أناس كانوا يخبرونه بها ، ويجعلون القرآن مأخوذاً من كتب أهل الكتاب ، ويتخبطون في ذلك تخبطاً عجيباً . وحين يفحمهم ما جاء في القرآن من حقائق علمية لم تعرف ولم تكتشف إلا في هذا العصر ، يرجعون ذلك إلى ذكاء محمد وعبقريته الخاصة ، فيقعون في تخبط أشد غرابة من سابقه.

الثالث :وإذ أنكروا رسالة محمد وزعموا أن القرآن ليس بكلام الله ، لزمهم أن يعلنوا أن الإسلام ليس ديناً منزلاً من عند الله ، وإنما هو ملفق من الديانتين اليهودية والنصرانية ، وهم في هذا يخبطون خبط عشواء ، إذ لا يملكون أي مستند يؤيده البحث العلمي السليم .جلُّ ما يملكونه ادعاءات تستند إلى وجود نقاط التقاء بين الإسلام والديانتين السابقتين ، الأمر الذي يرجع في حقيقته إلى وحدة الرسالات الربانية في أصولها الصحيحة.

ويلاحظ أن المستشرقين اليهود – أمثال" جولدتسيهر "و"شاخت – "هم أشد حرصاً على ادعاء استمداد الإسلام من اليهودية وتأثيرها فيه.

أما المستشرقون المسيحيون فيجرون وراءهم في هذه الدعوى ، إذ ليس في المسيحية تشريع يستطيعون أن يزعموا تأثر الإسلام به ، وأخذه منه ، وإنما في المسيحية مبادئ أخلاقية وبعض تعديلات تشريعية ، زعموا أنها أثرت في الإسلام ، ودخلت عليه منها ، وقد يعممون من غير أي أصل يستندون عليه.

ولم يكن التشابه في الأديان السابقة سبباً في نظرهم في إنكار المتأخر منها ، ثم ليس المفروض في الديانات الربانية أن تتعارض أو تتناقض في أصلوها أو مبادئها أو تشريعاتها ، بل المفروض فيها

ما دام مصدرها واحداً أن تتلاقى وتتفق ، ويدعم بعضها بعضها ، وأن يكون المتأخر منهما متمماً للسابق ، وهذه هي حقيقة الدين الرباني ، الذي أرسل الله لتبليغه للناس رسلاً تترى ، وختمهم بمحمد بن عبد الله.ﷺ

الرابع :التشكيك في صحة الحديث النبوي الذي اعتمده علماء المسلمين المحققون ، ويتذرع هؤلاء المستشرقون بما دخل على الحديث النبوي من وضع ودس ، متجاهلين تلك الجهود التي بذلها علماء المسلمين لتنقية الحديث الصحيح ، مستندين إلى قواعد بالغة الدقة في التثبت والتحري ، مما لم يعهد عندهم في ديانتهم عشر معشاره في التأكد من صحة الكتب المقدسة عندهم.

والذي حملهم على الشطط في دعواهم هذه ما رأوه في الحديث النبوي الذي اعتمده علماء المسلمين من ثروة فكرية وتشريعية مدهشة ، وهم لا يؤمنون بنبوة الرسول محمدﷺ ، فادعوا أن هذا لا يعقل أن يصدر كله عن رجل واحد أمي ، إنما هو عمل المسلمين خلال القرون الثلاثة الأولى ، فالعقدة النفسية عندهم هي عدم تصديقهم بنبوة محمد ، ومن هذه العقدة تنبعث تخبطاتهم وأوهامهم.

الخامس : التشكيك في قيمة الفقه الإسلامي الذاتية ، ذلك التشريع العظيم الذي لم يجتمع مثله لجميع الأمم في جميع العصور . لقد سُقط في أيديهم حين اطلاعه على عظمته وهم لا يؤمنون بنبوة محمدﷺ ، فلم يجدوا بداً من الزعم بأن هذا الفقه مستمد من القانون الروماني ، أي : أنه مستمد من الغربيين ، وقد بين علماء المسلمين الباحثون تهافت هذه الدعوى وفيما قرره مؤتمر الفقه المقارن المنعقد بلاهاي من أن الفقه الإسلامي فقه مستقل بذاته وليس مستمداً من أي فقه آخر ، ما يفحم المتعنتين منهم ، ويقنع المنصفين الذين لا يبغون غير الحق سبيلاً.

السادس : التشكيك في قدرة اللغة العربية على مسايرة التطور العلمي ، لتظل الأمة العربية المسلمة عالة على مصطلحات الغربيين ، وبذلك تشعر هذه الأمة بفضل الغربيين وسلطانهم الأدبي.

والتشكيك في غنى الأدب العربي ، وإظهاره على أنه مجدب فقير ، بغية أن تتجه الأمة العربية إلى آداب الغربيين ، وهذا هو الاستعمار الأدبي الذي يبغونه مع الاستعمار العسكري الذي يباشرونه.

السابع : تشكيك المسلمين في قيمة تراثهم الحضاري ، إذ يدعون أن الحضارة الإسلامية منقولة عن حضارة الرومان ،وأن المسلمين لم يكونوا إلا نقلة لفلسفة تلك الحضارة وآثارها ، ولم يكن لهم إبداع فكري ولا ابتكار حضاري ، وحين يتحدثون بشيء من الحضارة الإسلامية وحسناتها ، فإنما يذكرونها على مضض ومع انتقاص كبير.

الثامن : إضعاف ثقة المسلمين بتراثهم ، وبث روح الشك في كل ما بين أيديهم من قيم وعقيدة ومثل عليا ، ليسهل على الاستعمار المباشر وغير المباشر تشديد وطأته عليهم ، ونشر ثقافته الحضارية فيما بينهم ، فيكونوا عبيداً لها ،يجرهم حبها إلى حبهم أو إلى إضعاف روح المقاومة في نفوسهم.

التاسع : إضعاف روح الإخاء الإسلامي بين المسلمين في مختلف أقطارهم ، وذلك عن طريق إحياء القوميات القديمة ، وإثارة النعرات بين شعوبهم ، وإقامة الحواجز المصطنعة بين بلدانهم وأقاليمهم ، وإقامة العقبات الكثيرة دون تقاربهم ، ووحدة كلمتهم ، ووحدة صفهم ، والعمل على تعميق تجزئتهم في دويلات صغرى متعادية متناحرة.

وفيما يلي أمثلة من افتراءاتهم:

المثال الأول : يحاول فريق من المستشرقين إقناع العالم الغربي ، والذين يتأثرون بهم من الشعوب الأخرى ، ومن الجهلة من أبناء المسلمين ، بأن الإسلام شكل جديد للوثنية ، وأن محمداًﷺ نصب تمثاله الذهبي في الكعبة المحرمة بعد ما أخرج منها التماثيل والأصنام القديمة وكسرها.
هذه فرية ظاهرة جداً ، لا يقبلها من الغربيين أنفسهم ، من اطلع على القدر اليسير من الأصول الإسلامية المنقولة بأمانة.
المثال الثاني : فريتهم المفضوحة التي زعموا فيها أن محمداًﷺ أخذ القرآن عن بحيرا الراهب في بصرى الشام ، حين سافر مع عمه أبي طالب إلى الشام وهو غلام ، وقد سبق شرح هذه الفرية.
المثال الثالث : زعمهم أن الفقه الإسلامي مستمد من القانون الروماني ، مع أن أي ناظر في مصادر التشريع الإسلامي يكتشف بأدنى تأمل أن الفقه الإسلامي مستنبط من القرآن والسنة ، وأن أدلة مسائله أحكامه مبينة في كتب الفقه الإسلامي ، فلا وجود لأية أمارة ظاهرة أو خفية تسمح بإثارة هذه الشبهة ، فضلاً عن أن تتحول إلى قضية تطرح في ميدان البحث العلمي.
المثال الرابع : الترويج للرواية التاريخية الساقطة التي تزعم أن القائد الأموي لجيش يزيد بن معاوية بعد أن أخضع المدينة المنورة ، وقتل من أهلها من قتل ، أباحها لجنوده ثلاثاً عملاً بوصية يزيد الذي أمره بذلك.
المثال الخامس : تفسير الفتح الإسلامي بأنه لم يكن لنشر دين الله ، ولإعلاء كلمته ، وإنما كان هدفه الحصول على وسائل العيش الثرة ،في بلاد الشام والعراق وفارس ومصر، والتخلص من ظروف العيش السيئ داخل الجزيرة العربية.

المثال السادس : فرية بعضهم أن محمداًﷺ نقل معظم أصول الدين الإسلامي وفروعه من اليهودية

والنصرانية ، أو من الأمم الأخرى الهندية والفارسية ، وصاغها بطريقته الخاصة صياغة عربية.

هذه أمثلة مفضوحة مكشوفة ، زيفها واضح ، والافتراء فيها بين ، ولكن توجد مئات القضايا الجزئية التي أدخلها المستشرقون في بياناتهم لمفاهيم الإسلام وتعاليمه ، ومنها ما قد يخفى على بعض أهل العلم والخبرة لأن التحريف فيها يسير قد يظنه الخبير خطأً في الاجتهاد ، أو قصوراً في الفهم . وهم يسلكون في الأفكار المحرفة أسلوب التدرج ، إذ قد يبدأ التحريف بمقدار درجة واحدة من درجات الدائرة الهندسية ، حتى إذا استقرت فكرة هذا التحريف انتقلوا إلى درجة وراءها ، وهكذا تسلسلاً ، حتى يكون بين المحرف والأصل مسافة كبيرة جداً.

وعلى الباحث أن يحذر الدسائس حذراً شديداً ، وأن يكون على بصيرة دائمة ، وارتباط وثيق بنصوص الإسلام الكبرى ومصادره الأولى ، وما كان عليه سلف الأمة الصالح ، وأن يغلب جانب الشك في كل ما يقوله المستشرقون وتلامذتهم من أفكار ومفاهيم وأخبار وروايات عن الإسلام وتاريخ الأمة الإسلامية ، وحاضر العالم الإسلامي ، وإن كان الكلام مغلفاً بالثناء والإطراء والتمجيد.

فقد علمتنا الملاحظة والتجربة الطويلة أن كيد هؤلاء عظيم ، قد يدخل على أكثر أهل العلم يقظة وحذراً

موازين البحث عن المستشرقين

نظرة عامة:

يعتمد جمهور المستشرقين في تحرير أبحاثهم عن الشريعة الإسلامية على ميزان غريب بالغ الغرابة في ميدان البحث العلمي ، فمن المعروف أن العالم المخلص يتجرد عن كل هوى وميل شخصي فيما يريد البحث عنه ، ويتابع النصوص المراجع الموثوق بها ، فما أدت إليه بعد المقارنة والتمحيص كان هو النتيجة الحتمية التي ينبغي له اعتمادها والأخذ بها.

إلا أن أغلب المستشرقين يضعون في أذهانهم فكرة معينة يريدون تصيد الأدلة لإثباتها ، وحين يبحثون عن هذه الأدلة لا تهمهم صحتها بمقدار ما يهمهم الاستفادة منها لدعم آرائهم الشخصية ، وكثيراً ما يستنبطون الأمر الكلي من حادثة جزئية ، ومن هنا يقعون في مفارقات عجيبة ، لولا الهوى والغرض المريض لربأوا بأنفسهم عنها ، وكثيراً ما يعتمدون على الوهم المجرد لتفسير الأمور ، ويقيسون المسلم الذي يؤمن بالله ويخشاه على الذين لا تردعهم دين ولا خلق قويم ، ويعتبرون أن كل سلوك المسلمين أفراداً وجماعات ، لا بد أن يفسر بالأغراض الشخصية والنوازع النفسية الدنيوية

، وأن أي دافع ديني أخروي يبتغي به وجه الله لا وجود له عندهم ، إلى غير ذلك من موازين ساقطة في نظر أي باحث علمي يخلص للحقيقة ويحترم منطقه وعقله.

وفيما يلي طائفة من الأمثلة التي تكشف هذه الموازين عند المستشرقين ، حينما يكتبون في الإسلام وتاريخ المسلمين.

-1في محاولة المستشرق" جولدتسيهر "لإثبات زعمه بأن الحديث في مجموعه من صنع القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، وليس من قول الرسولﷺ ، ادعى أن أحكام الشريعة لم تكن معروفة لجمهور المسلمين في الصدر الأول من الإسلام ، وأن الجهل بها وبتاريخ الرسولﷺ كان لاصقاً بكبار الأئمة ، وقد حشد لذلك بعض الروايات الساقطة المتهافتة ، من ذلك ما نقله عن كتاب" حياة الحيوان "للدميري ، من أن أبا حنيفة رحمه الله لم يكن يعرف هل كانت معركة بدر قبل أحد أم كانت أحد قبلها.!!

وما لا شك فيه أن أقل الناس اطلاعاً على التاريخ يرد مثل هذه الرواية ، فأبو حنيفة وهو من أشهر أئمة الإسلام الذين تحدثوا عن أحكام الحرب في الإسلام حديثاً مستفيضاً ، وذلك في فقهه الذي أثر عنه ، وفي كتب تلامذته الذين نشروا علمه كأبي يوسف ومحمد ، من غير المتصور بحال من الأحوال أن يكون جاهلاً بوقائع سيرة الرسول ومغازيه ،وهي التي استمد منها فقهه في أحكام الحرب ، ويكفي ذكر كتابين في فقهه في هذا الموضوع يعتبران من أهم الكتب المؤلفة في التشريع الدولي في الإسلام.

أولهما – كتاب الرد على سير الأوزاعي لأبي يوسف رحمه الله.

ثانيهما – كتاب السير الكبير لمحمد بن الحسن رحمه الله ، وقد شرحه السرخسي وهو من أقدم وأهم مراجع الفقه الإسلامي في العلاقات الدولية ، وقد طبع هذا الكتاب تحت إشراف جامعة الدول العربية، برغبة من جمعية محمد بن الحسن الشيباني للحقوق الدولية.

وفي هذين الكتابين يتضح إلمام تلامذة الإمام – وهم حاملو علمه – بتاريخ المعارك الإسلامية في عهد الرسول وعهد خلفائه الراشدين.

و"جولدتسيهر "لا يخفى عليه أمر هذين الكتابين ، وكان بإمكانه لو أراد الحق أن يعرف ما إذا كان أبو حنيفة جاهلاً بالسيرة أو عالماً بها ، من غير أن يلجأ إلى رواية" الدميري "في كتابه "الحيوان "وهو ليس مؤرخاً ، وكتابه ليس كتاب فقه ولا تاريخ ، وإنما يحشر فيه كل ما يرى إيراده

من حكايات ونوادر تتصل بموضوع كتابه ،من غير بحث عن صحتها . ولا يخفى ما كان من أبي حنيفة ومعاصريه ومقلديهم من بعدهم من خصومة في المنهج الاجتهادي الذي اعتمده ، وقد كانت هذه الخصومة مادة دسمة لرواة الأخبار ومؤلفي كتب الحكايات والنوادر ، لنسبة حوادث وحكايات ، منها ما يرفع من شأن أبي حنيفة ، ومنها ما يضع من سمعته ، وأكثرها ملفق مختلق ، موضوع للمسامرة والتندر من قبل محبيه أو كارهيه على السواء ، الأمر الذي يجعلها عديمة القيمة العلمية في نظر العلماء والباحثين.

ف"جولدتسيهر "أعرض عن كل ما دون من تاريخ أبي حنيفة تدويناً علمياً ثابتاً ، واعتمد رواية مكذوبة ليدعم بها ما تخليه من أن السنة النبوية من صنع المسلمين في القرون الثلاثة الأولى.

-2أعرض المستشرق" جولدتسيهر "عما أجمعت عليه كتب الجرح والتعديل وكتب التاريخ ، من صدق الإمام محمد بن مسلم بن شهاب الزهري رحمه الله) ٥٠-١٢٤هـ(، وورعه وأمانته ودينه ، وزعم أن الزهري لم يكن كذلك ، بل كان يضع الحديث للأمويين ، وهو الذي وضع حديث) : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد إلخ (..لعبد الملك بن مروان ، وكل حجته أن هذا الحديث من رواية الزهري ، وأن الزهري كان معاصراً لعبد الملك ابن مروان .!!

-3يحاول المستشرقون أن يؤكدوا تعالي العرب الفاتحين عن المسلمين الأعاجم ، وانتقاصهم من مكانتهم ، وغرض المستشرقين من هذا إفساد قلوب المسلمين من غير العرب على المسلمين من العرب ، لإقامة الحواجز القومية بينهم.

يقول المستشرق" بروكلمان "في كتابه" تاريخ الشعوب الإسلامية: "

"وإذا كان العرب يؤلفون طبقة الحاكمين فقد كان الأعاجم من الجهة الثانية هم الرعية ، أي : القطيع . وجمعها رعايا كما يدعوهم ، وهو تشبيه سامٍ قديم كان مألوفاً حتى عند الآشوريين."

لقد تجاهل" بروكلمان "جميع الوثائق التاريخية التي تؤكد عدالة الفاتحين المسلمين ، ومعاملتهم أفراد الشعب على السواء ، من غير تفرقة بين عربي وغيره ، وتعلق بلفظ" الرعية "تعلقاً لغوياً ، واستنتج منها أن المسلمين نظروا إلى الأعاجم نظر القطيع من الغنم ، ولو رجعنا إلى مادة" رعى " في قواميس اللغة وجدناها تقول كما يلي" : الراعي : الوالي . والرعية : العامة . ورعى الأمير رعيته رعاية . وكل من ولي أمر قوم فهو راعيهم ، وهم رعيته ، فعيلة بمعنى مفعول . وقد استرعاه إياهم استحفظه . واسترعيته الشيء فرعاه. "

فالراعي في اللغة يطلق على رئيس القوم وولي أمرهم ، كما يطلق على راعي الغنم ، والرعية تطلق في اللغة على القوم ، ومن معاني الرعاية الحفظ والإحسان.

فإطلاق لفظ الرعية على القوم وضع لغوي ، ولم يجعل المسلمون إطلاق هذه الكلمة خاصاً بالأعاجم ، بل إطلاقها شامل كل قوم عرباً كانوا أو عجماً ، تبعاً للوضع اللغوي ، والأحاديث في ذلك كثيرة معروفة ، منها قول الرسولﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره" : ألا كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم ، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسوؤل عنه ، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته."

قال الحافظ ابن حجر في كتابه" فتح الباري ١٣/ ٩٦ "لدى شرحه هذا الحديث" : والراعي : هو الحافظ المؤتمن صلاح ما اؤتمن على حفظه ، فهو مطلوب بالعدل فيه والقيام بمصالحه."

وقد جاء أيضاً إطلاق الرعية على المسلمين في الحديث الذي رواه البخاري وغيره" : ما من والٍ يلي رعية من المسلمين ، فيموت وهو غاشٌّ لهم إلا حرم الله عليه الجنة."

فكيف أغمض" بروكلمان "عينيه عن هذا كله ، واستجاز لعلمه أن يدعي بأن المسلمين نظروا إلى الأعاجم نظرة القطيع ، وأنهم أطلقوا عليهم وحدهم لفظ الرعية؟

أليس هذا خيانة علمية ، وتضليلاً مكشوفاً ؟.

أين ادِّعاؤه هذا من النصوص الكثيرة التي ألغت الفوارق القومية والعرقية واللونية ، وجعلت المسلمين جميعاً سواسية في الحقوق العامة؟.

إن الهوى الجانح والغرض المريض يعميان البصائر عن رؤية الحق ، ويصمان الآذان عن سماعه.

4-زعم المستشرق" مايور "كما نقله عنه" مرجليوث "أن أهل البدو كانوا كثيري الاهتمام بتعلم البلاغة وطلاقة اللسان ، أن النبيﷺ مارس هذا الفن حتى نبغ فيه.

وهذا يعطينا صورة عن موازين البحث الفاسدة عند هؤلاء ، حينما يبحثون المسائل المتعلقة بالإسلام .

إن المسألة هنا عند" مايور "تقوم على استنتاج وهمي من أمرٍ لم يقع ، فلا العرب كانوا يتعلمون

البلاغة ، ولا كانت لها مدارس وتلامذة يضعون قواعدها ، ولا النبيﷺ عرف عنه قبل النبوة فعل ذلك ، وليس بين أيدينا نص واحد يثبته ، بل إن المؤكد أن الرسولﷺ لم ينقل عنه أثر من نثر أو شعر قبل النبوة ، وقبل أن يتنزل عليه القرآن الكريم.

-5يفرط المستشرقون في اختراع العلل والأسباب والحوادث التي يدرسونها اختراعاً ليس له سند إلا التخيل والتحكم ، ويزيد في فساد أسلوبهم هذا أنهم يتخليون أحداث الشرق والعرب والمسلمين وعاداتهم وأخلاقهم ، بأوهامهم وخيالاتهم الغريبة البعيدة عن واقع حال الشرق والعرب والمسلمين ، ولا يريدون أن يعترفوا بأن لكل بيئة مقاييسها وأذواقها وعاداتها.

وقد أحسن المستشرق الفرنسي المسلم" ناصر الدين دينيه "في حديثه عن أسلوب المستشرقين وموازينهم في الحكم على الأشياء ، مما جعلهم يتناقضون فيما بينهم تناقضاً واضحاً في الحكم على شيء واحد ، كل ذلك لأنهم حاولوا أن يحللوا السيرة المحمدية وتاريخ ظهور الإسلام بحسب العقلية الأوروبية ، فضلوا بذلك ضلالاً بعيداً، لأن هذا غير هذا ، ولأن المنطق الأوروبي لا يمكن أن يأتي بنتائج صحيحة في تاريخ الأنبياء الشرقيين.

قم قال : إن هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النبي بهذا الأسلوب الأوروبي البحث ، لبثوا ثلاثة أرباع قرن يدققون ويمحصون بزعمهم ، حتى يهدموا ما اتفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة نبيهم ، وكان ينبغي لهم بعد هذه التدقيقات الطويلة العريضة العميقة أن يتمكنوا من هدم الآراء المقررة والروايات المشهورة من السيرة النبوية ،فهل تسنى لهم شيء من ذلك؟

الجواب : أنهم لم يتمكنوا من إثبات أقل شيء جديد ، بل إذا أمعنا النظر في الآراء الجديدة التي أتى بها هؤلاء المستشرقون ، من فرنسيين وإنكليز وألمان وبلجيكيين وهولنديين وغيرهم لا نجد إلا خلطاً وخبطاً ، وإنك لترى كل واحدٍ منهم يقرر ما نقضه غيره من هؤلاء المدققين بزعمهم ، أو ينقض ما قرره.

ثم أخذ" دينيه "يورد الأمثال على هذه المتناقضات، وختم كلامه بقوله:

"وإن أردنا استقصاء هذه المتناقضات التي نجدها بين تمحيصات هؤلاء الممحصين بزعمهم يطول بنا الأمر ، ولا نقدر أن نعرف أية حقيقة ، ولا يبقى أمامنا إلا أن نرجع إلى السيرة النبوية التي كتبها العرب ، فأما المؤلفون الذين زعموا أنهم يريدون ترجمة محمد بصورة عملية شديدة التدقيق ، فلم يتفقوا منها ولو على نقطة مهمة ، وبرغم جميع ما نقبوه ونقروه ، وحاولوا كشفه بزعمهم ، فلم يصلوا ولن يصلوا إلا إلى تمثيل أشخاص في تلك السيرة ،ليسوا أعرق في الحقيق الواقعية من أبطال

أقاصيص" فالترسكوت "و"اسكندردوماس "فهؤلاء القصاص تخيلوا أشخاصاً من أبناء جنسهم يقدرون أن يفهموهم ، ولم يلحظوا إلا اختلاف الأدوار بينهم ، أما أولئك المستشرقون فنسوا أنه كان عليهم قبل كل شيء أن يسدوا الهوة السحيقة التي تفصل بين عقليتهم الغربية والأشخاص الشرقيين الذين يترجمونهم ،وأنهم بدون هذه الملاحظة جديرون بأن يقعوا في الوهم في كل نقطة.

تلخيص موازين البحث عندهم

ويمكن تلخيص موازين البحث عند المستشرقين في الموضوعات الإسلامية بما يلي:

1-تحكيم الهوى ونزعات العداء للإسلام والمسلمين , والتعصب الأعمى للنصرانية ، وللشعوب والأمم المنتمية إليها.

2-وضع الفكرة مقدماً ثم البحث عن أدلة تؤيدها مهما كانت ضعيفة واهية ، ولو اضطرهم الأمر إلى اعتماد أسلوب المغالطات والأكاذيب ، واقتطاع النصوص ، وهذا عكس المنهج العلمي الاستدلالي السليم.

3-تفسير النصوص والحوادث والوقائع والنيات والغايات تفسيراً لا تتفق مع دلالاتها وأماراتها الحقيقة ، ولا مع النتائج التي أثبتها تاريخ الأمة الإسلامية.

4-تضخيم الأخطاء الصغر ، وجعلها تطغى على ساحة صورة تاريخ المسلمين ، وطمس الصور الرائعة المشرقة في هذا التاريخ.

5-تجميع الهفوات التي لا تخلو منها أمة مهما عظمت كمالاتها ، ووضعها في صورة واحدة ، وتقديمها على أنها هي كل صورة تاريخ المسلمين.

6-تصيد الشبهات التي يشتبه وجه الحق فيها على كثير من الناس . ولا يستبين لهم ما لم يمتحنوها بالتجارب الطويلة ، وإثارة الانتقادات حولها ، وتحريك الزوابع المملوءة بالغبار وما تحمله من قمامات . وفي ذلك يستغلون أنانيات النفوس وأهواءها وشهواتها ،ويستغلون شعارات خادعات براقة المظهر ، زخرفية القول ، كشعار حرية المرأة.

7-اعتماد ما يوافق هواهم من كل خبر ضعيف ، ورأي مردود شاذ ، وقول ساقط لا سند له من عقل ولا نقل صحيح.

8-رفض الحق بالنفي المجرد ، الذي لا يدعمه دليل صحيح مقبول في المنهج العلمي السليم.

9-تفسير التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بالمنظار الذي يفسرون به التاريخ الغربي والحضارة الغربية ، مع تباين الواقعين عقيدة ونظاماً وشريعة ، وبيئة ودوافع تبايناً كلياً.

10-استنباط القواعد الكلية العامة من الحوادث الفردية الجزئية ، التي لا يصح منطقياً تعميمها.

11-الاعتماد على الوهم المجرد لتفسير الأمور والوقائع.

12-قياس المؤمن المسلم الذي يخشى الله على الذين لا تردعهم روادع دين ولا خلق.

وتفسيرهم لسلوك المسلمين أفراداً وجماعات بأنه مدفوع بأغراض شخصية ، ونوازع نفسية دنيوية ، وليس أثراً لدافع ابتغاء مرضاة الله وثواب الآخرة.